حبيس بحيرة قدس

للاب هنري لامنس اليسوعي

معربة بقلم المعلم رشيد اسكندري الشرتوني (تابع لما سبق)

ولمَّا صارت راحيل في مواجهة الكاهن الوقور بكت طويلًا في سرّها ثم ابتدأت تشرح لهُ اخبار عذاباتها الجديدة وكان صوتها يقوى ويشتدّ في وسط الطبيعة المتبلبلة وكانت الظلمة الناشرة لواءها تشجع القرينة المسكينة على ان تعرب بملء الحرّية عن حركات نفسها المنسحقة تحت وقر الالم والوجع

— آه يا ابي لك ان تظن في ما تشاء من الظنون كلاَّ انَّ الله ليس بعادل . . . ومن الآن فصاعدًا قد تقطَّعت كل علاقة بيني وبينهُ وكما تطير الاوراق اليابسة من امام وجه الزوبعة هكذا قد طار من قلبي ما كنت قد حفظتهُ فيهِ من الايمان القليل !

— التجئي يا ابنتي الى الصلاة فانها خير علاج

— لقد كنت انتظر منك هذه الكلمة المبتذلة بل هذه التعزية الخالية من كل معنًى والتي تصرف الانسان عن طلب غيرها . توصيني بالصلاة واي شيء عملتُ من يوم حلَّ بي العذاب ؟ ولكن ماذا ربحت غير زيادة الالم . فالله تعالى يُسرّ لا محالة بتعذيب خلائقهِ . . . ولو انهُ اجاب صلاتي مرةً واحدةً او منَّ عليَّ وقتًا ما ببعض الراحة لكان في الامر ما فيهِ . فكيف تريد اذًا ان اعتقد عدل الله ؟ آه لو اني صرَّحت لك بكل شيء واعترفت لك بجميع ما في قلبي لرددتني خائبةً بل لا يبعد ان تلعنني ايضًا

— كلا بل اني ابكي معكِ واشاركك في حزنك . نعم انّي اتعجَّب مما هو حاصل لكِ من الاضطراب والهيجان غير ان ذلك لا يسخطني ولا أبالي بهِ والله تعالى يتولَّى مغفرتك

— خرجتُ اوَّل امس من منزلي وركبتُ متن السفر دون ان افوه بكلمة صلاة او اصنع اشارة صليب كاني لست من الديانة بشيء . . . وبما اني من الآن وصاعدًا اصبحت لا أريد صلاة فستنقضي الامور عاجلًا وسأقيم على انتظار نصيبي المرتبط بعمود الوجود . . . لماذا اعطاني الله هذه الحياة التي لم اطلبها منهُ ؟ واي حياة اعطانيها . . .

حياة اوجاع واحجية عذاب بل دربًا حقيقة للصليب امضي فيها وانا ساكتة واجمة امام اله يتوارى عن الايدي الضارعة اليه ويُصمّ اذنيه عن احرّ الصلوات ومع ذلك يزعم انهُ صالح . . . وغير متناهٍ في الصلاح

— لا ريب ان الألم قد اضلّ عقلك واطفكِ بالتجديف

— كلاّ ان عقلي معي والذي قلتهُ قد افتكرت فيهِ ورأيتهُ عين الحقيقة والصواب . اتنكر ان الله عاماني بقساوة شديدة ؟ . ألا ترى انهُ قدّم لشفتيّ في اول الامر كأسًا لذيذة حلوة ثم ابعدها عني بغتةً . أطعمني بالسعادة والغبطة في الحب الخالص المتبادل وما لبث ان حطّني فجأةً حتى اراني العدم . . . ان الله تعالى لا بدّ ان يكون الآن مسرورًا لكوني اتوجّع واقاسي . . . أقاسي من العذاب ما دونهُ عذاب الجحيم

امّا الحبيس فابى ان يقطع تلك القرينة المنكودة عن اتمام شكواها واحبّ ان تتكلّم وتبثّ احزانها واكدارها كما تشاء وتريد . واي بأس اذا باحت بكلها يكنّهُ قلبها وطرحت على قدميهِ كل اعتراضاتها وكلّ ما يجول في نفسها من الحركات الثائرة ؟ ففي مثل هذه الاوقات لا يجدي السكوت نفعًا بل يكون عند بعض الناس من اهول المسالك واقطع الخطط التي يتخذونها . أليس المسيح بعينهِ مع كونهِ الهًا قد اطلق العنان لطبعهِ البشري في وقت ضيقتهِ وتركهُ يصرخ تلك الصرخة الهائلة « الهي الهي لماذا تركتني »

وبما ان الاب يوحنا لم يُجز جوابًا على شيء من كلامها لانهُ كان قد قلق من سورة الحزن الثائرة في نفسها خاطبتهُ قائلة :

قل لي اي شيء يحمل البارئ تعالى على تنكيد عيشي وتنغيص حياتي ؟ انك خادمه وموثّقه . . . فعليك ان تجاوبني

وكأن هذه المسكينة رهبت هول الجواب فاستأنفت الكلام بصوت اصمّ مختنق يتّخذهُ عادةً من جاشت فيهم الاهواء فقالت :

عرفتُ من زمان مديد ايها الرجل البار انّ الحب يُورث الجنون . ومع ذلك لم يخطر لي قط انهُ يحملني على اقتراف مثل هذه الحماقة واي حماقة اعظم لمن هو في حالة كحالتي ان يطلب نصحًا ومشورةً من رجل بلغ الثمانين . . . من رجل قديس تجرد لله وانقطع عن كل اوهام الدنيا . . . فسامحني اذًا يا ابتِ ان قلت لك انك لا تفهم شيئًا من المحبّة البشريّة . . . فقد جاهدت اسابيع واشهرًا كاملة لاكتم محبتي عن نفسي وعن

الغير ولكني كنت كلما جاهدت بشدة فعلى نسبة ذلك يقل نجاحي وفوزي بالمبتغى... وكنت كعليل محترق من وهج الحمى كلما اراد ان يرقد يأخذه القلق فيتقلب على فراشه تارة يصلي وتارة يترنم لياهو ويثير النعاس ولكنه كلما سعى في نسيان الاشياء تكاثر تواردها على خاطره فيقلق ويستمر قلقاً معذباً

هكذا جرى لي فقد مشيت على نصائحك حرفاً بحرف. ولكني كنت اذا سعيت في اطفاء محبتي زادت توهجاً. ولم تظهر لي في يوم من الايام بمثل هذا المظهر من القوة والشدة الا وقتما كنت أحاول سترها ليلي مع نهاري. وزد على هذا ان ما كان يتبين لي في بادئ الامر مستحيلاً ما عدت احسبه اليوم الا لعباً ولهواً. نعم نعم ان اخفاء محبتي على شقيقتي وعلى زين ما هو غير دعابة ومزاح بالمقابلة الى صناعة كتمها على نفسي. اه لو تعلم اني في هذه التجربة الاخيرة خسرت كل ما كنت قد ربحته من قبل بالمشقة والنصب... لاني لما اردت ان أخفي محبتي على نفسي افشيتها من حيث لا اريد الى حتة وزين. هذا فضلاً عن ان اضطرابي قد آل الى اقلاق راحتها. ومع ان الاثنين يقدمان لي غاية ما يمكن من الانس والمراعاة ارى ان محبة زين لم ترجع الي لا بل قد تأكدت اني صرت مكروهة عنده ومستثقلة فهو يحسبني اليوم خفيفة العقل كثيبة الاخلاق مع انه كان من قبل قلما يكترث لي... وبناء عليه ما عدت ارى دواء لدائي غير الموت والخلاص من هذه الدنيا واكدارها المرة...!

٢٢

قالت هذه الكلمات الاخيرة وسكتت مدة وكانت قد خارت قوتها وضاقت انفاسها من وطأة الحركة الباطنة التي ثارت فيها فاسندت رأسها الى جدار قلاية الحبيس. فلما شاهد منها النوتي المجهول هذا المشهد دنا فوقف على قدم الاستعداد لاسعافها عند اول اشارة تبدو منها. وكانت الريح تهب بشدة فترفع عباءته الغليظة وتكشف للنظر سيفاً مرصعاً علق في منطقته مع ثياب فاخرة لا يمكن ان يلبسها نوتي او فلاح من المقيمين في جوار البحيرة

اخيرا تنفست راحيل كانها قد خلصت من وطأة امر يهظها (ستأتي البقية)